

التوجيه الأخلاقي للشعر في نقد ابن حزم الأندلسي

١ / سلطان بن الجليلي
مدير البحث العلمي بمعهد الحضارة الإسلامية
وهران - الجزائر

كانت قرطبة في عصر الدولة الأموية عاصمة العلم والأدب والشعر، ومركزا إشعاعيا يقصده العلماء والأدباء من كل أقطار الأندلس، ولما سقطت هذه الدولة وانقرضت عقدها، قامت على أنقاضها دويلات اتخذت لنفسها عواصم متعددة في أنحاء الأندلس، فنتج عن ذلك أن نشطت الحركة الأدبية والشعرية بتعدد هذه العواصم، إذ أصبح لكل وحدة صغيرة أو بعبارة أخرى لكل مدينة حاكم مستقل، يسعى بسبب ما بينه وبين الحكام الآخرين من تنافس إلى تشجيع الحركة العلمية والأدبية في وطنه ومقر حكمه، فاتخذ بطانة من خيرة الأدباء والكتاب والشعراء والمؤلفين وحرص جد الحرص ألا يكون عند غيره مثله⁽¹⁾، فارتفعت بذلك مكانة الأديب، وازدادت منزلته علوا وكرامة وأصبح بالخيار على زمانه، وحكمه نافذ على أميره، لأنه إذا أنس إهمالا أو تضييعا، سرعان ما يتحول إلى حيث العز والكرامة في بلاط آخر⁽²⁾ لأن هذه البلاطات كانت في حاجة إلى دواوين وكتاب وسفراء وقائمين بالأعمال ومحاسبين مما ينمي نشاط الكتاب ورجال الدواوين⁽³⁾، لذلك نجد الوزارة في هذا العهد تقترب بالأدب، فقد كان أشهر الشعراء وبرز الكتاب وزراء، وكانت الشهرة بالكتابة والتبرز في الشعر والمعرفة بفنون الأدب وفروع العلم من وسائل الوصول إلى امتلاك الوزارة⁽⁴⁾، لذلك نجد كثيرا من الرجال قد تربعوا في مناصب الملك وتقلبوا مراكز الدولة، وكلهم من الأدباء والكتاب والشعراء، فاجتمع لهم بذلك من الشعراء والأدباء ما لم يجتمع لغيرهم من ملوك الأندلس.

ولما كان في تلك الحلبة من الشعراء وزراء، فاننا نجدهم قد انغمسوا مع ملوكهم وامرائهم في حياة اللهو والمجون مع النساء والغلمان، وتبسطوا في مظاهر الحياة بكثرة التخلع والتهتك ففتر بذلك الوازع الديني في النفوس، وقل الاهتمام بالقيم والأخلاق، وتجراً

بعض الشعراء فقالوا شعرهم في الهزل والخلاعة، واتخذوا منه مادة سمرهم وسهرهم في مجالس الشراب والأدب والغناء، بل وجدنا منهم من خصه في وصف مجالس أنسة وصرفه بين ندمائه وكأسه (5)، ومنهم من أفرده في الهجاء والغزل، فإذا "ماهجا اسمع الصم، وإن تغزل وصف الغلمان والمعذرين" (6).

ومن هنا كان لابد لهذا التيار من معارضين ومنكرين، فالحميدي (ت488هـ)، يعرض عن إيراد شعر الهجاء في كتابه جذوة المقتبس - خاصة ما كان قبيحا فيقول : «ولليحصي عندي أهاج قبيحة كرهت أن أورد لها عنه» (7)، وأما ابن بسام (ت544هـ) صاحب الذخيرة مرجع أدب وشعر ملوك الطوائف، فقد كان أكثر تصديا لشعر الهجاء، فأشار الى صيانتها لكتابه هنه، وإكباره له عن أن يكون ميدانا للسفهاء، ولكنه أورد طرفا من مليح التعريض في إيجاز القريض، مما لا أدب على قائله، ولا وصمة أعظم على من قيل فيه (8).

ويضرب ابن بسام أيضا عن رواية الموشحات الاندلسية لأسباب تتعلق بالاخلاق، إذ يبين أثرها الخلقي السيء فيقول : «وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها، ووضعوا حقيقتها غير مرموقة البرود، ولا منظومة العقود... وهي أوران أكثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب» (9). والموشحات الاندلسية تطورت في عصر ملوك الطوائف استجابة لمظاهر الترف ومتطلبات الطرب والغناء.

وإذا كان الحميدي وابن بسام قد اقصيا شعر الهجاء الماكن من مؤلفيهما، ملتزمين في ذلك بالجانب الاخلاقي، خصوصا ما تعلق بأعراض الناس وعوراتهم، فإن ابن حزم - وهو موضوع بحثنا - لم يبق في موقفه في الشعر - إلا على الاشعار التي تقال في الحكم والمواعظ.

وابن حزم في ذلك لم يفرد كتابا - في حدود ما اعلم - كالذي ألفه من بعده ابن بسام أو ابن خاقان، يجمع فيه أشعار أهل الأندلس كتلك التي تقال في الزهد والخير، وإنما سجل موقفه من الشعر في رسائله وفي كتابه التقريب لحد المنطلق.

ان ابن حزم في اقصاصه لأغلب فنون الشعر- وهو عالم الاندلس- ينطلق من تفكيره ذي النزعة الدينية، ومن آرائه التي لاتحيد عن الدين في معالجة الأمور التي تمس الانسان في الدنيا وفي الآخرة لذلك ربط الشعر بمقاصده واهدافه محددا بذلك موقفه منه «فمن قال الشعر في الحكمة والزهد فقد أحسن وأجر، وأما من قال معاتبا لصديقه ومراسلا له وراثيا من مات من اخوانه، بما ليس باطلا، ومادحا لمن استحق الحد بالحق، فليس بآثم ولا يكره ذلك واما من قال هاجيا لمسلم ومادحا بالكذب، ومشبها بحرم المسلمين فهو فاسق، وقد بين الله هذا كله بقوله : (الشعراء يتبعهم الغاؤون(10)، فابن حزم في هذا النص يؤكد على الشعر الديني، ويشترط الصدق والموضوعية في اشعار العتاب والرثاء والمديح، وينكر اشعار الهجاء والغزل لما فيها من الخلاعة ومس للاعراض وذكر للغورات.

وفي رسالته التي سماها : «رسالة مراتب العلوم» يتضح لنا موقف ابن حزم الصارم من الشعر، فقد نهى فيها عن كل ضرب من الشعر خارج عن غرض الخير، ولم يبق إلا على الاشعار التي تقال في الحكمة والمواعظ، لما فيها من تنبيه للنفس وتذكير بالآخرة، فنهى عن الاغزال والرقيق لأنها : تحت على الصباية وتدعو الى الفتنة، وتحض على الفتوة وتصرف النفس الى الخلاعة والذات وتسهل الانهماك في الشطارة والعشق وتنهي عن الحقائق، حتى ربما أدى ذلك الى الهلاك والفساد في الدين، وتبذير المال في الوجوه النميمة واخلاق العرض وازهاب المروءة وتضييع الواجبات(11) ... ، ونهى عن الاشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب، لأنها : تشير النفوس وتهيج الطبيعة وتسهل على المرء موارد التلف في غير حق، وربما أدته الى هلاك نفسه في غير حق والى خسارة الآخرة...(12)، ونهى ايضا عن أشعار التغرب وصفات المفاوز والبيد الهامة لأنها : تسهل التحول والتغرب، وتنشئ المرء فيها ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى(13)، ونهى كذلك عن الهجاء وهو أفسد ضروب الشعر لأنه «يهون على المرء الكون في حالة السفه من كناس الحشوش، والمعاناة لصنعه الزمير المتكسبين بالسفاهة والنذالة والخصاسة وتمزيق الأعراض وذكر

العورات وانتهاك حرم الآباء، وفي هذا حلول الدمار في الدنيا والآخرة(14).
وأما المدح والثناء فهما عنده من المباح المكروه، فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الميت والممدوح، وأما كراهيتهما فلأن طابع الكذب يغلب عليهما، ولا خير في الكذب(15).

وقد يجد الدارس لموقف ابن حزم من الشعر ما يبرره، فهو كما ذكرنا سابقا، عاش في عصر تنافس ملوكه في تقريب الشعراء والأدباء الى قصورهم، رغبة منهم في الظهور بمظهر الفخار والمجد، فكانت هذه القصور محطة مجالس الشعر والأدب، ومحل اللهو والخمر والمجون «وهي أمور تشغل حيزا كبيرا في آداب العصر وشعره(16)، لذلك لاجرم ان يشدد ابن حزم في موقفه من الشعر، خصوصا شعر هذا العصر الذي اتسم في كثير من مناحيه بالخلاعة والتهتك والاباحية، معطيا بذلك صورة واضحة عن ضعف ايمان اصحابه بالعقيدة واحكام الدين، من هنا كانت معظم هذه الاشعار -في رأيه- مدعاة الى الفتنة، وسبيلا الى الضياع وحلولا للدمار في الدنيا والآخرة، وخير للشاعر ان يتجنبها لخطورتها، ويتمسك بأشعار المواعظ والحكم والمدائح النبوية(17). لما فيه» من أدب يجب به الفضل، وموعظة تروض جماح الهوى وتبعث على التقوى، وتبين موضع القبح والحسن في الافعال، وتفضل بين المحمود والمذموم من الخصال(18).

ولم يقصر ابن حزم حديثه على الموضوعات الشعرية التي ينبغي أن يتجنبها الشاعر، بل نجده في كتابه "التقريب لحد المنطق" يحاول أن يعرف الشعر، فيقسمه ثلاثة أقسام : صناعة وطبع وبراعة، فيشير الى أن الصناعة هي التأليف الجامع للاستعارة بالأشياء والتحليق على المعاني والكناية عنها، ويمثل لهذا القسم بشعر زهير بن أبي سلمى وأبي تمام، ويذهب الى ان الطبع هو ما لم يقع فيه تكلف، وكان لفظه عاميا لأفضل فيه عن معناه، ويمثل لهذا القسم بشعر جرير وأبي نواس، وأما البراعة فهي عنده : التصرف في دقيق المعاني وبعيدها، والإكثار فيما لاعهد للناس بالقول فيه واصابة التشبيه وتحسين المعنى اللطيف، ويمثل لهذا القسم الأخير بشعر

امرى القيس وابن الرومي، ويخلص بعد هذا التقسيم الى أن أشعار سائر الناس راجعة الى الاقسام التي ذكرها ومركبة منها، وأن كتاب نقد الشعر لقدامة ابن جعفر وكتب أبي علي الحاتمي فيها كفاية الكفاية والاياعاب لمن أراد التمهري في أقسام الشعر ومختاره وأفانين التصرف في محاسنه(19).

ويلاحظ على هذا التقسيم الذي ذهب اليه ابن حزم، أنه أضاف الى اقسام الشعر المتعارف عليها في كتب النقد قسما ثالثا وهو شعر البراعة، ويرجح انه قد نظر اليه على انه تحصيل الحاصل، إذ ان الشعر المصنوع أو المطبوع، لايفيه التأليف الجامع للاستعارة والتحليق على المعاني أو الاتيان بما لم يقع فيه تكلف، ما لم يكن متصرفا في دقيق المعاني وبعيدها فيما لاعهد للناس بالقول فيه من هنا كان شعر البراعة بالنسبة اليه محمولا على الاثنين (الصناعة والطبع) ونتاجا عنهما.

ويلاحظ على هذا التقسيم ايضا، ان ابن حزم يقر بضرورة وجود الشعر، فهو في الوقت الذي ينكر معظمه ما دام منافيا للقواعد الخلقية والدينية، نجده في هذا التقسيم يمثل للقسم المطبوع بشاعرين كان أولهما مثالا للهجاء اللاذع وهو جرير، وكان ثانيهما أحد رؤوس عصبة المجون والتهتك والخلاعة وهو أبو نواس.

والراجع كما يقول الدكتور منجد مصطفى بهجت، ان ابن حزم لم يستطع ان يتخلى عن النظرة الجمالية في تقويمه للشعر وفي نظمه(20)، او انه «لم يبرح مقتضى الاحسان وهو ينظر لرواية الشعر، لان المتعة الادبية لديه كامنة في الصدق الخلقي الذي لازمه ابلاغ الحق وتعليم الخير(21).

وعموما، فان الذي يستخلصه الدارس من آراء ابن حزم النقدية، انه حاول ان يربط الشعر بالفضيلة، منطلقا في ذلك من اشعار عصره التي انحرف بعضها عن المعاني الاخلاقية، والظن كما يقول الدكتور رضوان الداية : «انه اراد ان يضع ما يشبه المنهج الاسلامي يترسمه الشعراء جميعا»(22).

الهوامش

- 1 - الفن ومذاهبه في النثر العربي، د/شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف ط1979، ص314-315.
- 2 - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م31، ج3 دمشق، تموز 1956، ص377.
- 3 - الادب العربي في الاندلس والمغرب، د/محمد رضوان الداية، دمشق مطبعة جامعة دمشق 1973، ص196.
- 4 - بلاغة العرب في الاندلس، احمد ضيف، مصر مطبعة مصر، ط1، 1924، ص60.
- 5 - قلائد العقيان في محاسن الاعيان، ابن خاقان، تونس : المكتبة العتيقة، 1934، ص52.
- 6 - الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق احسان عباس، بيروت، دار الثقافة 1978، ص2 ق2 م1/360-369.
- 7 - جذوة المقتبس في ذكر ولاية الاندلس، الحميدي، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1952م، ص409.
- 8 - الذخيرة : ق1 م1/344.
- 9 - الذخيرة : ق1 م1/469-470.
- 10 - رسائل ابن حزم الاندلسي، تحقيق د/احسان عباس، بيروت : المؤسسات العربية للدراسات، -146/163/3.
- 11 - رسائل ابن حزم : 68-67/4.
- 12 - رسائل ابن حزم : 68/4.
- 13 - رسائل ابن حزم : 68/4.
- 14 - رسائل ابن حزم : 68/4.
- 15 - رسائل ابن حزم : 68/4.
- 16 - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي : عبدالله عنان، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1، 1960، ص408.
- 17 - التقريب لحد المنطق، ابن حزم الاندلسي، تحقيق احسان عباس، بيروت : دار مكتبة الحياة (د،ت) ص206.
- 18 - اسرار البلاغة في علم البيان، عبدالقادر الجرجاني، بيروت : دار المعرفة (د،ت) ص236.
- 19 - التقريب لحد المنطق : 206-207.
- 20 - الاتجاه الاسلامي في الشعر الاندلسي (في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين د/منجد مصطفى بهجت مؤسسة الرسالة، بيروت ط1 1987، ص442.
- 21 - نحو منهج اسلامي في رواية الشعر ونقده : د/مصطفى عليان، دار النشر، عمان : ط1 1992 ص168.

22 - تاريخ النقد الادبي في الاندلس : د/محمد رضوان الداية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1981،
ص314.

السلامة العامة في المدن القديمة
والحديثة